المستشرقون والنظرة الاستعلائية للغرب

يبقى أن نشير إلى أن الاستشراق في منطقه المتعالي ينسجم تمامًا مع نظرة الاستعلاء والعنصرية الغربية... فالغرب كان - منذ الإغريق والرومان وحتى اليوم - يرى نفسه معدن الحضارة، ومركز العالم، والجدير بالسيطرة والتفوق... يرى نفسه السيد والشعوب الأخرى همجًا وبرابرة أو حتى رقيقًا، ولقد تمكنت نظرة الاستعلاء في الإنسان الغربي حتى أضحت بمثابة الغريزة المركوزة أو الجبلة الثابتة، وقد بررها لهم بعض كبار فلاسفتهم من لدن أفلاطون وأرسطو.. إلى نيتشه ورينان وجوزيف آرثر جوبينو، وجوتيه، وبروهيه، وكوزان... وقد كانت النظرة العنصرية (Racialism) الغربية السبب البعيد وراء معاناة الإنسانية بصورتها الأليمة البشعة حتى يوم الناس هذا.

وقد حاول كل من أفلاطون وأرسطو تقديم سند فلسفي للنزعة الغربية المتعصبة المستعلية، قال أفلاطون في كتاب «الجمهورية» - وهو من أهم ما كتب إن لم يكن الأهم - : «أليس من الدقة أيضًا أن نقول إن الشعوب اليونانية تجمعها رابطة القرابة ووحدة الأصل، وتختلف عن البرابرة في الجنس والدم؟ هذا صحيح!! فإن قاتل اليونانيون البرابرة، أو البرابرة اليونانيين، فعندئذ نقول: إن بين الفريقين حربًا، وأنهما بطبيعتهما أعداء.. ولكن ألن تكون الدولة التي نريد تشييدها دولة يونانية؟ هذا ضروري»[1] ثم يقيم دولته على أساس طبقي عنصري ويعمق تأكيد التفاوت العرقي الطبيعي بين البشر تحت شعار: أداء كل لوظيفته الطبيعية» «والعمال - عنده - من أي نوع كانوا - من أفراد القطيع أو الدهماء، وهم بحكم تعريفه لهم: بهائم منحطة التفكير، تريد أن تملأ بطونها، لها رغبات وليس لها مثل عليا»[2].

(1) أفلاطون: الجمهورية، ص 362 - 3 من نشرة الدكتور فؤاد زكريا، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(2) جورج سارطون: تاريخ العلم جـ 3 ص 38 ط 3 ترجمة الدكتور توفيق الطويل نشر دار المعارف.

كما فلسف كل من سقراط وأفلاطون العبودية والرق على أنها ظاهرة طبيعية، فإن هناك أناسًا ولدوا ليكونوا أرقاء، وأن الرقيق يستحق مصيره لأنه لا يصلح إلا له»[1].

وإني لأقدر موقف الدكتور فؤاد زكريا المنصف الذي عبر عنه بقوله: «أليس لنا أن نشك في قيمة وجدية كل مذهب أخلاقي يكون الرق عنصرًا أساسيًّا فيه، ومبدأ يبرره المذهب عن وعي.. هذا تجاهل للكرامة الإنسانية في أول وأهم مقوماتها»[2].

ويدين جورج سارطون الفيلسوفين – أرسطو وأفلاطون – لأنهما اعتبرا أن المتبربرين – أي غير اليونانيين – من جنس أدنى، وأنه من الصواب شهر الحرب عليهم، واستئصال شأفتهم، واسترقاقهم، وأن اليونانيين ولدوا أحرارًا، والمتبربريين ولدوا عبيدًا.. ومما يذكر للإسكندر الأكبر بالتقدير أنه استطاع أن يرتفع بنفسه عن مستوى أستاذه أرسطو»[3]، ويقول سارطون: «أدرك الإسكندر ما لم يدركه أفلاطون وأرسطو، وهو إمكان قيام وحدة بين جميع البشر... وأن أقوى دليل على فضل الإسكندر وعبقريته استطاعته وحده التغلب على ميول أفلاطون وأرسطو الخبيثة[4]». في العنصرية والاستعلاء واسترقاق الشعوب.

أما برتراند رسل فيقول: «لقد أخطأ اليونان خطأ فاحشًا حين أحسوا شعور السيادة على الشعوب البربرية – غير اليونانية – ولا شك أن أرسطو قد عبر عن فكرتهم العامة في ذلك الحين فقال: «من الخطأ أن يُتخذ اليونان عبيدًا، لكن ذلك عندهم جائز بالنسبة للشعوب البربرية، لأن اليونانيين وحدهم الذين يجمعون بين التحضر وشعلة الحياة التي تملؤهم»[5].

(1) مقدمة الجمهورية ص 87 وقد ربط سقراط بين العبيد وبين الأرض والعقار بوصفهم مصادر للدخل الذي يأتي بلا عمل.

(2) مقدمة الجمهورية ص 93.

(3) تاريخ العلم جـ 3 ص 178، 179.

(4) تاريخ العلم جـ 3 ص 178، 179

(5) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية جـ1 ص 351، 284، 295، ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود، ومراجعة الأستاذ/ أحمد أمين، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1967 القاهرة.

وعن الاستعلاء الغربي في العصر الحديث يحدثنا الدكتور ألبرت حوراني عن المستشرق الفرنسي المعروف Ernest Renan «وهو واحد من أهم المستشرقين الذين أثروا في تكوين أفكار الغرب تجاه الإسلام».

"E. Renan, one of the seminal figures in the formation of European idea about Islam"

«أقر رينان أن العالم ينقسم إلى قسمين كبيرين هما: (Semites) و(Aryans) وأن الجنس السامي قدم التوحيد والمسيحية والإسلام الذين فتحا العالم، لكن هذا الشرق لم يقدم للحضارة الإنسانية شيئًا يذكر أكثر من ذلك مثل: الأساطير، والأدب الرفيع، والفنون، بسبب البساطة المريعة للروح السامية، التي أغلقت العقل البشري دون فكرة دقيقة، أو عبارة فائقة، وأمام كل ضروب البحث العلمي؛... لذا فهي قد منعت التقدم العلمي.. ويكرر رينان أطروحته هذه في محاضرة له بعنوان: (الإسلام والعلم) فيقول: «كل شرقي وأفريقي وجد نفسه مغلولًا تمامًا بطوق حديدي ضرب على رأس كل مؤمن، وسد أمامه طريق العلم كلية، ولم يفتح أمامه القدرة على إنتاج أية فكرة جديدة.

بيد أن الروح الآرية هي التي أبدعت كل جديد؛ في السياسة بمعناها الحقيقي، والفن، والآداب التي لا يملك الساميون منها شيئًا على الإطلاق (باستثناء شيء يسير من الشعر) فضلًا عن العلم والفلسفة.

وبهذا الخصوص نحن إغريقيون تمامًا، وحتى ما يسمى بالعلم العربي لم يكن أكثر من امتداد العلم الإغريقي، الذي لم ينقل بواسطة العرب، لكن نقلته كانوا من الفرس والإغريق المرتدين على الإسلام، ويقال كذلك: إن المسيحية في تطورها الجديد إن هي إلا صناعة أوروبية.

ومسقبل البشرية - لذلك - مرهون بالشعوب الأوروبية وحدها، وهناك شرط ضروري لتحقيق هذا الهدف، ألا إنه تحطيم العنصر السامي (الشرقي)

في الحضارة، وتدمير قوة الإسلام الثيوقراطية.. ولم يكن هوى رينان مع العالم الإسلامي، بل مع الكنيسة الرومانية والقديس سلبيوسي»[1].

ويؤكد الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرزاق نزعة التعصب الغربية هذه قائلًا: «أما التعصب الجنسي على العرب الذي تبدو له بوادر في كلام (تنمان) فقد كان أيضًا روح العصر، ولم يلبث ارنست رينان الفيلسوف الفرنسي المتوفى 1892م أن زخرف له لباسًا علميًّا من أبحاثة في تاريخ اللغات السامية، ثم جعله حملة شعواء.. وشاركه في حملته تلك المستشرق الألماني كرستيان لاسن Ch. Lassen»[2] وكذلك جوتييه وبرهييه[3].

«ثم جاءت نظرية التفوق النوردي – شعوب أوروبا الشمالية – وهي فرع من نظرية التفوق الآرى – التي تحيا في ألمانيا لهذا العهد – التي تزعمها جوزيف آرثر جوبينو، الذي يرى أن الشعوب الآرية وحدها دون غيرها هي التي خلقت كل ما له قيمة في الحضارة، وحافظت عليه...، وأسندت إليها جميع الفضائل، وقيل إنها منبع جميع الحضارات العالمية من قديم الزمان إلى حديثه.... إلخ»[4].

ويذكر جوج سارطون مرة أخرى: «أن الزعم بأن الثقافة الغربية المستمدة من الأصليين الإغريقي والعبري، أرقى الثقافات، فيه خطر وشر، وهذا الزعم هو المحور الرئيس للمتاعب الدولية في العالم!»[5].

ولا يمكننا أن ننسى للغرب ممارسته العدوانية؛ بصورها المتعددة والمتنوعة..

---

(1) See: A. Hourani. Islam in European Thought. PP. 28 – 29.
H. Wardman. E. Renan: A Critical Biography. London. 1964 PP. 46 - 47.

(2) الشيخ مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص 9ط 3، مكتبة النهضة المصرية.

(3) المرجع السابق ص 22.

(4) المرجع السابق ص 29/ 28.

(5) جورج سارطون، تاريخ العلم جـ1 ص 21 – 22، طبعة 1979م وانظر ص 122 ومواضع أخرى. وانظر ما كتبه الدكتور توفيق الطويل في كتابه، (أسس الفلسفة) ص 44 الطبعة السابعة.

التقليدية منها والمبتكرة.. ومن بينها السيطرة على شعوب العالم الثالث (البرابرة)[1].... والأمثلة تفوق الحصر.. وليس حظر تصدير التكنولوجيا إلى الدول الفقيرة، مع تدفق الأسلحة والعتاد إليها واستنزاف العقول البشرية منها، واستقطابها إلى الغرب.. مع الحرب الثقافية الضروس لإعادة تشكيل العقل والثقافة في العالم النامي، بما يكرس تبعيته للغرب وذوبانه فيه، ليست إلا مجرد أمثلة من بين عشرات أخرى يمكن رصدها وإبرازها في هذا الشأن.

ومما يستحق التأمل أن الأب الدومينكي الدكتور جورج قنواتي يصرح بأن الغزو الثقافي الغربي للعالم الإسلامي أسطورة كبرى وخرافة لا حقيقة لها ولا أساس!!...، ولا خطر على ثقافتنا؛ ولا خوف على شخصيتنا، ويضيف: إن الدعوة إلى محاربة الغزو الثقافي دعوة باطلة، وناتجة عن مركبات النقص والخوف،..

(1) عن طريق الديون؛ فقد أعلن الرئيس المخلوع السيد حسني مبارك أنه يأخذ من الغرب خمسة مليارات فيطلب منه الأخير ردها أكثر من عشرين مليارًا من الدولارات، وبالأمس أعلن السيد شيفرنادزه في الأمم المتحدة: أن الغرب يغتال آمال وتطلعات التنمية والحياة لشعوب الدول الفقيرة، وأعلن أن الغرب قدم للدول الفقيرة عام 1988م قروضًا تبلغ خمسين مليارًا، وقد سددت هذه الدول الفقيرة في نفس السنة ثمانين مليارًا للدول الغنية.. وإن ما يتم سداده للأغنياء يمثل اقتطاعًا أليمًا وقاسيًا من القوت الضروري لاستمرار الحياة والوجود لهذه الشعوب، ولا يزال الغرب يرى أن الاستنزاف الصارخ للبقية الباقية من مقومات التنمية والوجود في دول العالم الثالث هو الحل الأمثل.

(الأهرام ووكالات الأخبار 1989/ 9/ 30)

والشواهد كثيرة جدًا على عنصرية الغرب واستغلاله؛ منها موقفه العدواني من قضايا الشعوب العادلة في فلسطين وجنوب أفريقيا ولبنان، وكشمير والبوسنة والهرسك وغيرها.. ومن الطرائف أن وكالات الأنباء أذاعت تصريحًا على لسان الدكتور روبرت هارتوج قال فيه إن نصف الأدوية التي تصنع في سويسرا وهي ثالث دولة منتجة للدواء في العالم – غير مطابق للمتطلبات العلاجية أو الأبحاث أو مواصفات مركبات العقاقير، وهذه الأدوية تباع لدول العالم الثالث، وبعضها خطير للغاية، والبعض الآخر بلا فائدة علاجية، كما أن كثيرًا من الأدوية قد منعت الدول الغربية استعمالها في بلادها، ومازالت تنتجها وتصدرها إلى الشعوب النامية الفقيرة.

(الأهرام والأخبار في 1989/ 9/ 30)

وينصح الشباب الطموح ألا يكتفي بما ينقل إليه من تراث لا يستقيم إلا إذا تشبع بروح العصر!![1].

ورغم أن دعوى الأب قنواتي يعارضها الواقع من جهة وتعارضها الدراسات الغربية نفسها[2] من جهة أخرى، فإن تصريحات الدكتور مصطفى هدارة التي نشرت في نفس اليوم الذي نشرت فيه تصريحات الأب المذكور جاء فيها: أن الاستشراق لا يزال يلعب دورًا مريبًا في توجيه الثقافة العربية، فضلًا عن الشبهة في اتصاله الوثيق بأجهزة المخابرات الغربية ضد هذه الثقافة العربية؛ وذلك عن طريق فك الارتباط بالتراث وتشكيكنا في قيمته وصلاحيته وأصالته، ثم عن طريق تركيز الاستشراق المعاصر على الأعمال الأدبية المتأثرة بالغرب فكرًا وأداء يبين أن ثقافته هي التي سادت أخيرًا؛ وكمثال على ذلك فإن حركة الحداثة بالمعنى الأيديولوجي التي سار وراءها أمثال (أدونيس) قد تركت آثارًا مدمرة في اتجاهاتنا الأدبية المعاصرة التي أصبحت محاكاة للفكر الغربي، ولا تعبر عن مجتمعاتنا ولا شخصيتنا... بل تعجب عندما تجد كاتبًا إسرائيليًّا يكتب عن يوسف إدريس ويهاجم كل الذين انتقدوا جنوحه إلى العامية في بعض أقاصيصه، وهو ما يذكرنا بالمعركة الاستشراقية القديمة التي حاولت فرض السيادة للعامية العربية على الفصحى؛ ليفقد العرب أحد مقاومات وحدتهم، بل أهم هذه المقومات... وهو وحدة اللغة ووحدة الفكر.

ما مدى ارتباط هذه الحركة الاستشراقية بالمؤسسات المخابراتية؟

لا شك أن حركة الاستشراق في بداياتها كانت موجهة لمعرفة تفصيلات الحياة الاجتماعية والنفسية للشعوب الواقعة في قبضة الاستعمار، بالإضافة إلى كل ما يقوم به الاستعمار من أمور سياسية ورصد اتجاهات الفكر... والعناصر

(1) (الوفد في 1989/ 9/ 21).

(2) Hamllton A. R. Gibb, " The Reaction of the Middle East Against Western Culture" Paris, 1951.

الاقتصادية، ثم عدل الاستشراق مساره، بعد أن دالت دولة الاستعمار، وحل محلها استعمار من نوع جديد، هو: استعمار الفكر، وتسلُّط المباديء الاجتماعية، ونمط الحياة؛ وصولًا في النهاية - إلى الخضوع السياسي والاقتصادي... وكانت (العلمانية) من بين الأغراض المهمة التي أراد الاستعمار بثها، عندما وجد أن الإسلام- خاصة - يرتبط باتجاهات الشعوب الإسلامية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. فكانت الخطوة الأولى «تحييد المسلمين بدعوى الليبرالية - المطلقة، وعدم الخضوع للغيبيات» فيما يسمونه. وقد أثرت هذه الحركة على بعض المفكرين ووجدوا أن نمط الحياة الأوروبية قد يكون مثلًا أعلى يحقق لمجتمعنا التقدم والرفاهية... ولكنهم أخذوا بالظاهر دون الجوهر.

وكانت هناك دعوات - ربما أخلص أصحابها في إعلانها - كدعوة د. طه حسين إلى تعليم اللاتينية واليونانية حتى في مدارسنا الثانوية تقليدًا لنمط التعليم في أوروبا، بالإضافة لاتخاذ النمط الأوروبي سبيلًا لحياتنا في كل جوانبها، ولم يتحرج من الدعوة لخروج مصر من آسيا وإفريقيا إلى حوض البحر المتوسط!!.

لقد تطورت المخابرات الغربية تطورًا هائلًا في السنوات الأخيرة - وأصبحت بحاجة لمعلومات على قد كبير من الخطر والأهمية... ولا شك أن وجود مستشرقين متخصصين في العربية وآدابها، ومعظمهم يأتي للبلاد العربية، ويقيم فيها فترات قد تطول يجمعون قدرًا كبيرًا من المعلومات التي قد تفيد مؤسسات الاستخبار في بلادهم... وإن لم يكونوا كما كان أسلافهم من المستشرقين القدماء مرتبطين ارتباطًا كليًّا بأجهزة هذه المخابرات أو متوجهين للدراسات العربية من أجل تحقيق هذا الهدف.

وسئل: «معنى هذا أنك تتهم مؤسسات الاستشراق المعاصرة بارتباطها ببعض أجهزة المخابرات في العالم؟ فأجاب: بالطبع[1]».

(1) (الأهرام في 1989/ 9/ 21م).

وأسوق من جانبي حديث الرئيس الفرنسي (ميتران) الذي جاء فيه: إن السوق الأوروبية قد أقمناها من أجل حماية شعوبنا من سموم الثقافة الأمريكية ومن خطر الاختراعات اليابانية... وكما أن هناك هواءً ملوثًا وماءً ملوثًا، فالجو الأوروبي ملوث بالتلفزيون الأمريكي!! ولابد من الوقوف والمعارضة والصمود»[1].

(1) (الأهرام في 1989/ 9/ 30).

obeikandl.com